مجالى الفكر

الحديث

[في الاجتماع والفن والاقتصاد والتاريخ]

١ — السلطان في العالم الحديث

تأليف الفيلسوف برتراند رسل[1]

قال احد الكتّاب المشهورين في برتراند رسل : « انهُ فيلسوف متصوف والفلاسفة كالصوفيين يرون رؤىً . على ان اصحاب الرؤى ليسوا اضعف القوى التي تسيّر هذا العالم ولا اخمل الناس في ما يبذلونهُ من السعي لرفع مستوى الحياة » . وقال رسل نفسهُ : « ان نظري الى الكون والحياة كنظر سائر الناس وليد الحوادث والايام قدر ما هو وليد الطبع الموروث »

هذا الفيلسوف الاجتماعيُّ الكبير ، نشأ عالماً رياضيًّا من الطبقة الاولى ، وقد وضع مع الفيلسوف هوايتهد كتاباً في الرياضيات — مبادىء الرياضيات — يعدُّ من اهم مراجع هذا العلم في العصر الحديث . ولكن الحوادث والايام وجهتهُ الى الناحية الاجتماعية . وقد قال نفسهُ انهُ بقي ثلاث سنوات متردداً — بعد اتمام كتاب المبادىء — في ما عساهُ ان يتجه اليهِ من المباحث والاعمال . وكان حينئذٍ يدرّس في جامعة كمبردج ولكنهُ ايقن — وكأن يداً خفية كانت تحركه — انهُ لا بدَّ لهُ ان ينقلب من بحث المنطق الرياضي الى ميدانٍ آخر . وكانت الحرب الكبرى العامل الحاسم في توجيههِ الجديد . قال : « ولاول مرة في حياتي وجدت شيئاً يشغل طبيعتي بأسرها . ذلك ان اشتغالي بالمجرّدات من قبل كان قد ترك غرائزي الاجتماعية دون ما يكفيها .... ان الفطرة الوالدية التي لم تكن محققة فيَّ حينئذٍ ، حملتني على ان أغضب وأثور لمنظر شبان اوربا يخدعون ويساقون الى المجزرة لاكفاء الشهوات الشديدة التي تكتسح صدور كبارهم

(١) POWER. A New Social Analysis. By Bertrand Russell, Allen & Unwin Loudon 7/6

واستقامتي الفكرية منعتني من تصديق الخرافات التي اتخذتها الدول المتحاربة عذراً لتوسّع بإثارة الفتن . والواقع ان المفكرين الذين صدقوا هذه الخرافات كانوا قد تخلّوا عن عملهم الصحيح لينسوا بالشعور أنهم واحدٌ من القطيع . وهذا كان في نظري عملاً غير شريف . لانهُ اذا كان للمفكر عملٌ في المجتمع فعليه الاحتفاظ بحكم هادىء مجرّد حين ثورة العواطف والشهوات . ولكنني وجدت اكثر المفكرين لا يثقون بفائدة العقل الاّ في ايام السلم »

وكذلك انقلب العالم الرياضيُّ داعية للسلام فخرج من كمبردج ثمّ التحوّل من الفلسفة الرياضية العالية الى الفلسفة الاجتماعية العالية . فنفع الفيلسوفُ الاجتماعي العالمَ بطائفة من الكتب الممتازة في « التعليم » و«الزواج » و«مبادىء التنظيم الاجتماعي » و «غزو السعادة» و «طرق الحرية » و« الفكر الحرّ والدعاية الرسمية »

الاّ ان البذرة الصغيرة الحية التي تبينها في بعض كتاباته السابقة وهي « ان اساس الفوضى الدولية هو ميل الناس الى الخوف والبغض وهـــذا هو اساس النزاعات الاقتصادية لان حب الاستئثار بالقوة والسلطة—وهو اساس كل نزاع اقتصادي— ليس الاّ صورة جديدة لفطرة الخوف . فالناس يريدون ان يتسلطوا لانهم يخشون ان يتسلط سلطان الغير لهدم مصلحتهم »— هذه البذرة نراها وقد تحوّلت في كتابه الجديد الذي عنوانهُ «السلطان» [illegible] شجرة عنيّة كثيرة الاغصان والورق

والغالب انّ حسّ رسل الاجتماعي هداهُ الى بحث هذا الموضوع الخطير في عصرٍ هو اشدُّ ما يكون حاجةً الى فهمه . وقد توصل في بحثه الى قاعدة جديدة توضح كثيراً من الغامض على الفهم وهو ان «السلطان» فكرة اساسية في علم الاجتماع على نحو ما نجد «الطاقة» فكرة اساسية في علم الطبيعة . والسلطان كالطاقة يبدو في اشكال متباينة ، كالثروة والسلاح والمعتقدات والسلطة الحكومية والتأثير في آراء الغير ، وليس في الوسع ان تقول ان احد هذه الاشكال مقدم على الآخر ، او ان احدها اصل والآخر فرع ، فمعالجة الشكل الواحد بمعزل عن الاشكال الأخرى لا يفضي الى الفهم المستقيم ، على نحو ما يتعذر بحث شكل من اشكال الطاقة بحثاً كاملاً من جميع نواحيه الاّ اذا اقترن ببحث اشكال الطاقة الأخرى

قد تنشأ الثروة من السلطان العسكري او من السلطان على الرأي العام ، كما ان السلطان العسكري والسلطان على الرأي العام قد ينشآن من الثروة . ان نواميس التركيب الاجتماعي لا يمكن ان تفرغ الاّ في قالبٍ اساسهُ فهم فكرة السلطان . ففي العصور الماضية كان السلطان العسكري يعزل عن غيره من الاشكال الاخرى ، فكان يبدو ان النصر او الخذلان رهن بصفة القائد . ولكننا في هذا العصر نميل الى حسبان السلطان الاقتصادي اصلاً تنبع منهُ صور السلطان

الاخرى . وهذا في رأي برتراند رسل خطأ يأتي من خطأ المفكرين الذين يحسبون الدعاية والسيطرة على العقول وتنوس منع السلطان . لاريب في انهُ اذا استطاعت الدعاية ان تنشىء اجماعاً عامًّا ولدت قوة لاترد . ولكن الذي في ايديهم زمام السلطان العسكري او السلطان الاقتصادي يستطيعون ان يستعملوا سلطانهم للدعاية . ولذلك يرتدّ الفيلسوف الى التمثيل بين السلطان والطاقة فيقول ان الفهم الصحيح لطبيعة السلطان يقتضي منا ان نحسبهُ كالطاقة دائم التحوُّل من شكل الى آخر ، وان مهمّ العلم الاجتماعي يجب ان يتجه الى كشف نواميس هذا التحوُّل وفهمها

هنا يصحّح الفيلسوف الانكليزي ما يذهب اليهِ متطرفو الماركسيين من تفسير التاريخ وتفسير الاجتماع تفسيراً ماديًّا محضاً . فهو يقول : انهم يخطئون في حسبان المصلحة الاقتصادية باعثاً اساسيًّا في علم الاجتماع . ان الرغبة في اقتناء العروض رغبة لها حدٌّ اذا فصلت عن السلطان او المجد اللذين يقترنان بها . وفي الوسع اشباعها بيسر . فالرغبة في الترف لايعليها حب الرفاهة المادية . والرجل الذي يرغب في جمع طائفة من صور اعلام المصورين القدماء انما يرغب فيها لما يوليهِ اقتناؤها من مجد اوسلطان لا رغبة منهُ في جعل البهو الذي يضعها فيهِ بهواً للراحة . فاذا استوثق الفرد — او الجماعة — من قدر معتدل من الرفاهة ، سعى الى السلطان بدلاً من الثروة . فيطلب الثروة كوسيلة للسلطان ، او قد يتخلى عن قدر من الثروة ليزيد نصيبه من السلطان . ولكن الباعث في الحالين ليس باعثاً اقتصاديًّا

ولعله من الخير ان نضرب للقارىء مثلاً في هذا الموضوع ساقهُ المستر رسل في كتابهِ في الصفحة ١٢٨ قال : — ان السلطان الاقتصادي في الدولة مع ارتداده الى القانون والرأي العام يسهل عليهِ الفوز باستقلال خاص . فهو يستطيع ان يؤثر في القانون بالإفساد والارتكاب وفي الرأي العام بالدعاية . وفي وسعه ان يجعل رجال السياسة مدينين لهُ فيحدُّ من حريتهم . ويستطيع ان يهدد باحداث ازمة مالية . ولكنَّ هناك حدوداً لتأثيره . فقد رفع قيصر الى مقام السلطان بعون دائنيه الذين ادركوا ان لا امل لهم في استيفاء ما لهم عليهِ إلاَّ بنجاحه . فلما اصاب النجاح احسَّ بقوة مكنتهُ من تحديهم . وشارل الخامس اقترض من « آل فوجرز » المال الذي احتاج اليهِ ليناع منصب الامبراطور . فلما اصبح امبراطوراً تكر لهم فخسروا المال الذي اقرضوه اياه . وقد حل بالسي (حي الاعمال المالية بلندن) شيء من هذا القبيل في عصرنا عند ما ساهمت في انعاش المانيا ، وكذلك حلَّ بتيسن الالماني عندما اشترك في رفع هتلر الى مقام السلطان

الاَّ اننا نخطىء الغرض من حديثنا عن هذا الكتاب ، اذا حملنا القارىء على الظن ان الكتاب بحث فقهيٌّ في موضوع « السلطان » وبسط لمذهب خاص فيهِ . لانهُ في الواقع وعلى الغالب بحث واقعي في صور « السلطان » المختلفة . كيف تنشأ وترعرع ثم تضعف وتدول .

والامثلة عليها مستمدة من تاريخ الكنيسة وتاريخ الدول القديمة والحديثة . وعلى ذلك عقد الفيلسوف رسل فصولاً متتالية في سلطان الكهان والملوك والقضاة والزعماء الثوريين والطبقات الاقتصادية ثم فيها فصول في السلطان على الرأي وفي المعتقدات بوصف كونها ينابيع للسلطان ثمّ الاساس البيولوجي للتنظيم الاجتماعي والعلاقة بين الفرد والجماعة وصلة السلطان بنظم آداب النفس وأخيراً «رويض السلطان»

فغرض الكتاب ، ان يحلّل صاحبهُ التحول الاجتماعي ، تحليلاً أوفى مما تنطوي عليه تعاليم الاقتصاديين . وهذا التحليل قائم على ان شهوة السلطان هي الباعث الرئيسي على التحوُّلات التي يتجه علم الاجتماع الى دراستها . والسلطان الاقتصادي هو نوع السلطان الرفيع المكانة في هذا العصر ، واسباب ذلك كثيرة . منها ان الجماعة الثرية الماضية في سبيل زيادة ثروتها ، تتيح للشبان منفذاً لإشباع شهوة السلطان فيهم . اما الجماعة الفقيرة الماضية الى الارتفاع فتحدُّ من هذه الشهوة في النشيط القوي من الشبان ، فتضطرب اعصابهم وعقولهم فيحقدون في العنف بدلاً من الاكتفاء الاقتصادي عن منفذ لنزعاتهم الاصيلة . وفي اوربا كثير من هذه الجماعات الآن

ولا يذهب بك الظن الى ان شهوة السلطان ضارّة حتماً . فهي طبع في كل قويّ النفس والجسد ويتدريبها في الصغر يمكن توجيهها في مسالك نافعة . ويرتراند رسل يعتقد ان القاسي الظالم بين الناس نادرٌ اذا احكم تدريبه في صغره ولم يلق مشقة كبيرة في الفوز بعمل يستنفد جانباً من نشاطه . ولذلك يرى ان استعمال السلطان استعمالاً نافعاً يقتضي توافر ثلاثة شروط . يجب على السلطان ان يقترن بهدف معيَّن اي ان لا يطلب السلطان لذاته . ثانياً يجب على هذه الاهداف ان تكون مما يشبع رغبات الغير كهدف الفنان او المخترع او البحّاثة العلمي . ثالثاً حتى اذا صلحت اهداف السلطان فيجب ألاّ تكون وسائله بحيث يتغلّب فيها الضارُّ على المفيد او الطالح على الصالح . هنا موطن الخطر في استعمال السلطان ، واشهر مظاهره في نذوب الحروب . فالحروب التي تبدأ لاغراض سامية بوساطة رجال من الصُلاح مقتنعين اشدَّ الاقتناع بانهم على صواب ، يختمها رجال اخذ منهم الغضب والحقد كلَّ مأخذ فلا همَّ لهم الاّ الثأر او اذلال الخصوم

وعند الفيلسوف رسل ، ان اهم صور السلطان ثلاث هي التقاليد والسلطان العاري والسلطان الثوري . فسلطان التقاليد قائم على العادة والمعتقدات العامة والتسليم بالآراء السائدة ، اما السلطان العاري فتعريفهُ ان الآخذين به يحترمونهُ لانهُ سلطان لا لأي سبب آخر ، والفترات التي يسودها السلطان العاري هي الفترات التي يميل فيها سلطان التقاليد الى الانحلال بتطرُّق الضعف الى المعتقدات والعادات في شؤون الدين وأدب النفس . ولذلك نجد في فترات الفكر الحرّ والنقد المطلق تمهيداً لقيام السلطان العاري . لقد حدث هذا في اثينا في القرن الخامس . وفي ايطاليا في عهد

الاحياء . وهو حادث — على ما يلوح لرسل — في عهدنا هذا

ويتبين الفيلسوف رسل ان القيم الادبية مستقرة في الافراد لا في الجماعات وان سلطان الدولة الحديثة اكبر مهدد لسعادة الفرد . ولذلك تراه يبني فصله الاخير في «ترويض السلطان» على تربية الفرد وتدريبه . واننا لنبني على ما يقول المستر جود ان السياسيين فقط يفوقون العلماء في شهوتهم للسلطان والتحكم . والمستر رسل كاتب بليغ على ما تبين من الفقرات السابقة، ولكنه يبلغ اوج بلاغته عند ما يتحدث عن الشروط النفسية لترويض السلطان . قال : الخوف والغضب وجميع ضروب الهيج في الجماعات ، تميل بالناس الى ان يسيروا سيراً اعمى وراء الزعيم الذي يغتنم الفرصة في معظم الاحيان ليقيم نفسهُ طاغية . . . اذكر احد البلاشفة لقيته في باكين سنة ١٩٢٠ واتذكره يسير في غرفته ذهاباً واياباً وهو يقول صادقاً « اذا لم نقتلهم قتلونا » . ان هذه الحالة النفسية في الفريق الواحد تولد حالة مثلها في الفريق المقابل . والطائفة تقاتل الى النهاية ، يخضع كل شيء فيه للنصر . في خلال القتال ، تتقلد الحكومة سلطاناً استبدادياً لاسباب حربية . فاذا جاء النصر استعملت سلطانها الاستبدادي لسحق ما تبقى من العدو اولاً ، ثم لتأكيد استمرار تحكمها بتوبيدها . فمن الحق ان تسحب هيبة الجماعة واندفاعها لان ثمراتها القسوة والحرب والموت والاستعباد

ويقول ايضاً وفي قوله سمة السخرية اللاذعة التي تبدو في غير يسير من كتاباته : « ان الرجال الذين يسمحون لشهوة السلطان ان تشوّه نظرهم الى العالم تجدهم في كل مستنقع عقلي . فبعض احدهم انهُ مدير بنك الكترا وآخر انهُ الملك وثالث انهُ الله عزَّ وجلَّ . فاذا افرغت هذه الاوهام في كلام غامض اقتضت بقائله الى مناصب اساتذة الفلسفة في الجامعات . واذا افرغها في قالب فصيح رجال تحركهم الانفعالات الشديدة أدَّت الى الدكتاتوريات . ان المجانين الرسميين توصد الابواب عليهم ليلهم الى العنف عندما يشكُّ احدٌ في ما يزعمون . اما الذين لم تصدر بجنونهم شهادات رسمية فيمنحون السيطرة على جيوش عظيمة . وفي وسعهم ان ينزلوا الموت والخراب بجميع العقلاء الذين في مثارلهم . ان نجاح المجنون في الادب والفلسفة والسياسة من خواص هذا العصر ، والجنون في شكله الناجح ينبع كلُّهُ تقريباً من شهوة السلطان

ويقول كذلك : كان الناس في العصور الغابرة يبيعون انفسهم للشيطان ليفوزوا بقوى السحر . ولكنهم يفوزون بهذه القوى الآن عن طريق العلم فيلفون انفسهم مضطرين ان يغدوا شياطين، وليس للعالم امل الا بترويض السلطان ، ووقفه على الخدمة — لا خدمة هذه الجماعة من الطغاة المتعصبين او تلك — بل على خدمة البشر بياضاً وسوداً وصفراً ، فاشيين وشيوعيين وديمقراطيين ؛ لان العلم اوقعنا في مأزق فاما ان نحيا جميعاً واما ان نموت . .

٢ — دراسة بعض المنسوجات الاسلامية الفريدة في متحف الفنون الجميلة في بُسْطن

صناعة النسيج من أقدم الصناعات التي نشأت مع الانسان وكانت وليدة حاجته في وقاية نفسه من العوامل الجوية . وقد تدرّج فيها في سلم التطوّر كما تدرّج في غيرها من الصناعات ، فاتخذ ملابسه من ورق الشجر ، ومن جلود الحيوان ثم ألهمتهُ الطبيعة نسجها من الحشائش والاعصان ثم اهتدى الى عمل الخيوط من الكتان والصوف والحرير والقطن بل ومن الذهب والفضة والورق ولب الاخشاب . ومن هذه الخيوط نسج جميع ما يحتاج اليه من المنسوجات

ولم يقف بمنسوجاته عند حد نفعها المادي فحسب ، بل عمل على أن تكون الى جانب ذلك أثراً فنيًّا يشعر بالجمال ، ترتاح اليه عيناه ، ويبعث الاعجاب في نفوس اخوانه وعشيرته ، فزينها بوسائل مختلفة : تارة بأن رقم عليها بالاصباغ (painting) زخارف شتى ، وتارة ينسجها من خيوط متباينة الالوان (woven pattern) ، وطوراً بتطريز (embroidery) اشكال هندسية او نباتية او حيوانية فوق اديمها وطوراً بتزيينها بشرائط ينسجها في صميمها (tapestry) ويسمها رسوماً وصوراً مختلفة

ولاتصال المنسوجات بحياة الانسان ، وملازمتها له في كل أدوار حياته ، كانت عناية علماء الآثار بدراستها عظيمة ، لانها تبين بطريقة نسجها مدى رقي الصناعة ، وتعكس بزخرفها مقدار ما بلغتهُ الامة من الذوق الفني . وكثيراً ما كانت هذه الدراسة نبراساً اهتدى الباحثون بنوره الى الوقوف على درجة رقي الامم وحضارتها ، ومدى تأثرها بغيرها من الامم او تأثيرها فيها من الناحية الفنية ، وعرفوا ما كان قائماً من العلاقات التجارية بين البلاد المختلفة في شتى العصور

وكما اثرت مصر الباحث في آثار فجر التاريخ بما أمدته به من التراث الفني الخالد الذي احتفظت به على سطحها واختزنتهُ في جوفها فاستطاع ان يقف على اعرق مدنية عرفها الانسان ، فانها لم تبخل على علماء آثار ضُحى التاريخ بما أماط لهم اللثام عن حضارة تلك العصور ، وعرّفهم مدى مابلغته هذه البلاد على الخصوص من الرقي في الصناعة ، والسمو في الفن ، في وقت كانت تسود فيه ظلمات الجهل معظم بقاع العالم ، والفضل كل الفضل في ذلك انما يرجع الى ذلك الجو الجاف الذي حبتا به الطبيعة والى الارض أمنا الرؤوم ، التي حافظت بطبيعتها على الآثار الفنية لابنائها الاولين فكانت حريصة اشد الحرص على العناية بها لتسلمها لنا ، لكي نرينا عظمة السلف الكريم ، وقد أدت هذه الامانة على احسن وجه اذ كان من اهم تلك الآثار بل لعلها اهمها

(1) A Study of Some Islamic Textiles in The Museum of Fine Arts (Boston). By Nancy Pence Britton.

جميعاً تلك المجموعة الثمينة من المنسوجات الأثرية التي كشف وما يزال يكشف عنها المشتغلون بالآثار منذ حملة الفرنسية حتى الآن ، والتي لا تعدو في الحقيقة ان تكون سجلاً كاملاً لتاريخ مصر منذ عصر الفراعنة حتى العصر الاسلامي ، لا تنقصهُ سوى صفحات قليلة ، قد يكشف عنها البحث في مستقبل الأيام . على أن هذا النقص ليس بطاعن في قيمة هذا التاريخ الصادق المكتوب بيد الفن الذي لا ينطق عن الهوى وليس بقلم المؤرخ الذي قلما يبرأ من الغرض

***

واذا نحن استعرضنا هذا التاريخ الحي رأينا عظمة مصر الفرعونية متجلية في القطع التي عثر عليها في مقبرتي تحتمس الرابع وتوتنخ آمون والتي تدل رقة نسجها ، ودقة رسمها ، وجمال تلوينها على انها نتاج مجهودات طويلة ، وتطورات متعددة ، تقلب فيها فن النسيج قبل سنة ١٤٤٧ ق . م . وتكاد تنطق بمقدار ما بلغتهُ مصر من الدرجة السامية من الرقي في ذلك العصر عند ما كانت من غير شك تقود غيرها من الامم في مدارج التقدم الفني

وتعترضنا بعد ذلك فترة انقطاع هي تلك التي نأمل ان ينكشف عنها الغطاء عن قريب . ثم تجيء تلك الكميات الوفيرة من المنسوجات التي استخرجتها البعثات الأثرية من بقاع شتى من البلاد ، والتي تلمس في زخارفها دخول عوامل جديدة على الحياة المصرية كان لها البعد الأثر في كيانها السياسي والديني ؛ وفي حضارتها وفنونها ، ونقرأ في نقوشها مدى تغلغل النفوذ الاجنبي في البلاد ، وتحكمه في توجيه الفنون فيها ، وتأثيره في عناصرها الزخرفية ، فمنها ما تم زخرفته على التأثير اليوناني ، وفيها ما يتجلى فيه اثر المدنية الرومانية ، وبعضها يذكرنا بظهور الديانة المسيحية ، وبعضها ينطق بسيطرة الفن البيزنطي ، وبعضها يدل على انتشار الفن الساساني ، وطائفة كبيرة منها تبدو فيها زخارف الفن الاسلامي

وايضاح ذلك كله ولو في شيء من الايجاز لا يتسع لهُ فصل كهذا ، وتكفينا هذه الاشارة لندرك ما للدراسة المنسوجات الأثرية من مقام

ولئن كان الكثير من هذه المنسوجات تزدان به اليوم متاحف مصر ولا سيما دار الآثار العربية التي لا تزال حتى اليوم توالي حفرياتها في البقاع التي اتخذها المسلمون في العصور الوسطى مكاناً لدفن موتاهم ، وتستخرج من هنالك كميات وفيرة من المنسوجات الاسلامية ، حتى اصبحت اغنى متاحف العالم في هذه الناحية ، يستطيع ان يجد الباحث فيها سلسلة متصلة الحلقات من تلك التحف تمكنهُ من دراستها وتطلعهُ على مدى التطور التدريجي فيها ، فان طائفة كبيرة منها قد تسربت بطرق شتى من وطنها العزيز واتخذت طريقها الى عواصم اوربا واميركا واستقرت في متاحفها . ولئن كان يؤسفنا حقاً انها بعيدة عنا ، فان لنا عزاء في انها سفير دائم لنا ، يطلع علماء

الغرب على مجدنا ، وينبههم الى عظمة اجدادنا ، فضلاً عما تناله في مواطن غربتها من التقدير والاجلال ، اذ كانت ولا تزال موضع دراستهم وبحثهم ، فاظهروا لنا ما ننطوي فيها من آيات المهارة في الصنعة والسمو في الفن . ولاريب ان لذلك من الأثر البعيد في اذكاء الحنين في نفوسنا الى استعادة مجد السلف ما لا سبيل الى انكاره

والكتاب الذي نعرّف به القراء اليوم ليس في الواقع الاّ اثراً من آثار هذا التمجيد لتراثنا الفني القديم . تناولت بالدراسة فيه مؤلفته — السيدة تالي بنس بريتون — طائفة من المنسوجات الاثرية الاسلامية المحفوظة بمتحف بُسطن بأميركا الذي كانت تشتغل فيه

وقد قسمته الى خمسة اجزاء تحدثت في الاول منها عن نشأة الفن الاسلامي وعن الكتابة العربية ، وعن الطراز ونظامه ، وختمت هذا الجزء بكلمة موجزة عن الناحية الفنية لصناعة النسج ، وبينت ما لهذه الناحية من مكانة عند مؤرخي الفن ، اذ هي تساعدهم على تأريخ التحف المختلفة عند ما يتعذر عليهم ذلك من الكتابة التي عليها ، او من طراز حروفها ، او زخرفها

ولقد وفقت الكاتبة في تلخيص هذه الموضوعات تلخيصاً لا يشفع فيه الاّ كون الكتاب — على حدّ قولها — دليلاً موجزاً للأنواع المختلفة للمنسوجات الاسلامية التي اختارتها من مجموعة متحف الفنون الجميلة في مدينة بُسطن ، ولكن كلمتها عن الطراز ونظامه ، لا يصح المرور بها دون التنبيه الى انها في حاجة الى شيء كثير من التدقيق ، اذ تسرعت في الحكم على ان «طراز العامة كان يملكه التجار الذين يبيعون بضائعهم للجمهور او يصدرونها للبلاد الأخرى» (ص ١٩) واعتمدت في قولها هذا — كما اشارت في هامش هذه الصفحة — على نص ورد في كتاب الخطط للمقريزي ، ولكن هذا النص لا يحتمل التأويل الذي ذهبت اليه بأي حال ، وموضوع دور الطراز ونشأتها ونظمها لم تزل الى اليوم من الامور الغامضة في الفن الاسلامي

وتكلمت في القسم الثاني على المنسوجات العراقية ، بادئة بموجز تاريخي يصور المطلع بالظروف المختلفة التي نسجت فيها تلك المنسوجات ، ثم عقبت على ذلك بدراسة اثنتي عشرة قطعة دراسة تدل على اتساع أفق اطلاعها ، وقدرتها على مناقشة الآراء بصدد تاريخ بعضها

وتناولت في القسم الثالث المنسوجات المصرية . والواقع ان هذا القسم يعتبر درّة في تاج كتابها ، اذ اجادت كل الاجادة في عرض سلسلة تطور هذه المنسوجات عرضاً تاريخياً فنياً جديراً بكل اعجاب وتقدير ، وتنقلت مع القارىء من فترة الانتقال من العصر القبطي الى عصر صدر الاسلام ، ثم الى العصر العباسي فالعصر الفاطمي . بينت في وضوح لا لبس فيه مميزات كل عصر ، في شكل الكتابة والزخرفة ، واشارت الى ما في المتاحف الاخرى من القطع التي قد تمتّ اليها بسبب ، واوضحت ما أثير من آراء علماء الآثار حول بعض القطع وأيدت

منها ما استحق التأييد — في نظرها — وردت على ما استوجب الرد . ثم درست مجموعة الفيوم والقطع المنسوبة الى طراز الصعيد ، وكانت في دراستها واضحة مفهومة بعيدة عن التعقيد ، مما يدل على حسن فهمها للموضوع الذي قصدت لبحثه . وقد ختمت هذا القسم بدراسة ثلاث قطع لم تتوفر الاسباب ولا القرائن للاستيثاق من أصلها ، أو تاريخها ، فاحسنت عرضها وتحليلها

اما القسم الرابع فقد اختصت به منسوجات بلاد اليمن فأوضحت في جلاء طريقة نسج العصب اليمنية Izar ثم عقبت على ذلك بدراسة ثلاثة قطع من هذا النوع . وتكلمت في الفصل الأخير على قطعة من الحرير الايرانية الاصل عليها زخارف بعضها مطبوع وبعضها منقوش ، وقد قدمت لهذا الفصل بكلمة موجزة بينت فيها طريقة عمل ذا الكا النوعين من الزخرفة

اعدت السيدة نالسي بريتون كتابها هذا على الصورة التي بسطناها هنا ، ثم حضرت الى دار الآثار العربية ، التي لا غنى عنها لباحث في المنسوجات الاسلامية ، وقضت فترة ليست بالقصيرة ، درست فيها مجموعتها النفيسة مسترشدة بآراء العالم الكبير الميوجانستون فيت مدير الدار ، والاستاذ الدكتور زكي محمد حسن اميها . ثم نظرت في كتابها بعد هذا الدرس ، وعدلت فيه ما رأت الحاجة ماسة الى تعديله ، وعهدت به بعد ذلك الى الدكتور زكي حسن فقرأه ، واضاف اليه ، وحذف منه ، حتى خرج الكتاب على الصورة التي هي بين ايدينا . وما جهدت الكاتبة هذا الفضل بل سجلته

وبعد فالكتاب في الحقيقة دراسة أثرية قيمة لطائفة من المنسوجات الاسلامية ، امتاز فوق ذلك بأناقة طباعته ، وحسن ترتيب فهارسه ، ولئن كنا نختلف مع المؤلفة في بعض آرائها ، فليس ذلك بمانعنا من الاعتراف بأنها قد دلت ببحثها على سعة اطلاعها ، واعتمادها على المراجع الموثوق بها ، وتملكها من مادتها ، واجادتها تحليل ما يعترضها من الآراء المختلفة

دار الآثار العربية — محمد عبد العزيز
الملحق الفني لدار الآثار العربية

٣ — التقدم الاقتصادي في مصر الحديثة[1]

اما ومصر تجتاز مرحلة خطيرة من مراحل تقدمها الاقتصادي فليس ثمة ريب في ان كتاباً يعالج موضوع تقدمها هذا من ايام محمد علي الكبير الى يومنا هذا يغدو مرجعاً ذا شأن في دراسة الاتجاهات الاقتصادية العامة فلا يستغني عنه الصحافي او الناشئ او الاستاذ او الطالب . فاقدام المستر كروتشلي الاستاذ بكلية التجارة في جامعة فؤاد الاول على وضع هذا الكتاب عمل يستحق كل ثناء ويلوح لنا من مطالعة هذا الكتاب ودراسة بعض فصوله ان الاستاذ كروتشلي اعد المدات

(١) The Economic Development of Modern Egypt. By A. E. Crouchley. Longmans Green & Co. London

الوافية للاضطلاع بهذه المهمة . ولا نعلم مدى خدمته في مصر ولكن اسلوبه في معالجة الموضوع من الناحية التاريخية وبحثه في الاتجاهات الحديثة يدلان على سعة علم ودقة بحث متروتين بذهن منظم فأخرج كتاباً جامعاً لأهم الحقائق والاتجاهات الاقتصادية حسن التبويب والترتيب

قال في توطئته « هذا البحث سعي الى تتبع السمات الغالبة على تقدم مصر الحديثة من الناحية الاقتصادية تتبعاً موجزاً وطالما شعر الطلاب وغيرهم من المهتمين بحياة مصر واحوالها بحاجتهم الى هذا الكتاب وقد مضت سنوات منذ بين المستر كريج ... الحاجة الى بحث من هذا القبيل فكان بحثي في الاموال الاجنبية المثمرة في هذه البلاد — وهو بحث نشرته وزارة المالية — سعياً الى تمهيد الطريق واستجلاء بعض النواحي الغامضة في هذا التقدم . فلما انشئت دراسات خاصة بالتاريخ الاقتصادي في الجامعة المصرية (جامعة فؤاد الاول الآن) اصبح من الضروري وضع كتاب يحتوي على تاريخ مصر الاقتصادي في العهد الحديث وقد وضع هذا الكتاب تحقيقاً هذا الغرض والأمل ان يكون مفيداً لجميع المهتمين بتقدم مصر في العهد الحديث »

والكتاب على ما يقول مؤلفه وعلى ما يقينه القارىء بالمطالعة مستند الى الوثائق الاصلية سواء أكانت رسمية أم شبيهة بالرسمية فكان عليه أن يغربل شتى الحقائق المودعة في تقارير اللجان والوزارات ومحفوظات قصر عابدين ومحفوظات وزارة الخارجية بلندن وتنسيقها ولذلك يعتذر المؤلف عما يبدو في كتابه من وجوه النقص بتنوع الحقائق وتعارض بعضها والحدود التي رسمها لكتابه مما اقتضى منه الاختصار في غير تسم منه

الكتاب ستة فصول تملأ مع الذيول وثبت المراجع ٢٨٦ صفحة من القطع الوسط فالفصل الاول يحتوي على ملخص لتاريخ مصر الاقتصادي من الفتح الاسلامي الى اواخر القرن الثامن عشر والفصل قسمه مبوب تبويباً حسناً شأنه في ذلك شأن سائر الفصول. فبعد ان اوجز المؤلف تاريخ مصر (وقد اورد خطأ تاريخ الفتح الاسلامي لجملة ٦٣٩ م وهو ٦٤٠ م وتاريخ فتح السلطان سليم لمصر لجملة ١٤١٥م وهو ١٥١٧م) عالج حالة الزراعة في العقد الاخير من القرن الثامن عشر والمحصولات المختلفة كالقمح والذرة والشعير والرز والبصل والنيلة والتبغ وغيرها . اما القطن فقد قال فيه انه كان يزرع حينئذ في الوجهين القبلي والبحري زراعة واسعة النطاق وان القطن في الوجه القبلي كان يجنى من شجرة تعمر من ثماني سنوات الى عشر سنوات وانها في السنوات الثلاث الاولى من حياتها كانت تنتج ثلاثة قناطير في الفدان . ثم يقل محصولها وتهبط جودة قطنها . ثم عالج الصناعة في الحقبة نفسها من حيث تنظيمها من ناحية ومن حيث تنوعها وانتشارها من ناحية اخرى. وكانت صناعة النسيج اهم هذه الصناعات ففي صناعة نسج الصوف مثلاً كان اجود الصوف ينسج في الفيوم وكان القطن ينسج في اسنا وقوص وقنا وبني سويف والكتان في الدلتا

والفيوم وكان نسيجه يباع في الاسواق الاسبوعية في طنطا وتنوده وكان الحرير المستورد من سوريا ينسج في الدلتا ولاسيما المحلة الكبرى

على هذا النمط الطيب في التحقيق والتبويب عالج المؤلف موضوع التجارة والمواصلات في ذلك العهد ثم اتبع به ما كان لحملة الفرنسية من تأثير الاقتصادي في مصر . قال : ان الحملة الفرنسية وجهت ضربة قاضية الى النظام الاقتصادي والسياسي القديم وفتحت البلاد لتيار المؤثرات الخارجية بعد ان قضت البلاد اربعة قرون وهي في عزلة عن نمو الحضارة والثقافة في العالم الغربي

وعد المؤلف ان البواعث على الحملة الفرنسية اقتصادية وسياسية معاً ولكنهُ اهمل الاهمال من حسابه العامل الشخصي ايضاً وهو مطامح بونابرت القائد الذي أحرز الانتصارات العظيمة في شمال ايطاليا في اواخر القرن الثاني عشر وعاد الى باريس وهو يأبى ان يغمد فيها سيفاً منيًّا

الفصل الخاص بحالة البلاد الاقتصادية وتقدمها في عهد محمد علي اطول فصول الكتاب اذ يشمل ستين صفحة منهُ عالج فيها المؤلف احوال الزراعة والصناعة ونظم التجارة وملكية الاراضي في عهد مؤسس الاسرة العلوية . ومن الخير ان نقول هنا — وقد نقلت الصحف من اسابيع نبأ عقد النية على بناء سفن الاسطول البحري المصري في مصر — ان ساكن الجنان محمد علي باشا بنى الاسطول المصري الثاني — بعد ما دمر معظم أسطوله الاول في معركة نافارين ١٨٢٧ — في الاسكندرية وان من السفن التي بناها سفناً كانت في الصف الاول بين سفن الأساطيل العالمية قطر مدافع واتقان صنعة . بدأ بناء هذا الأسطول في يونيو من سنة ١٨٢٩ فما جاءت سنة ١٨٤٠ حتى كان الأسطول المصري أقوى أسطول في شرق البحر المتوسط . أنشأ محمد علي الجيوش وبنى الأساطيل وحارب الحروب بغير ان يستدين مالاً من الخارج ولكن الذي خلفوه في الأربكة المصرية كانوا أقل حرصاً منهُ من هذه الناحية فامتدت يد المرابين الدوليين الى مصر مما جلب عليها الكوارث . والحديث في الفصل الثالث وهو الفصل الذي يتناول عهد عباس الاول وسعيد واسماعيل يجلو لك هذا الموضوع ولكنهُ لا يقتصر عليه . فالحديث عن شبكة الحديد الأولى في مصر في بدء النصف الثاني من القرن الماضي وقصة امتياز قناة السويس وشقها والاحتفال بافتتاحها وأعمال الري المختلفة وزيادة الاراضي الصالحة للزراعة وارتفاع قيمة الصادر من البلاد واتساع شبكة المواصلات الحديدية وانشاء خطوط التلغراف (أنشيء الخط التلغرافي الاول سنة ١٨٥٤ بين القاهرة والاسكندرية)

ثم كانت ثورة عرابي وعهد الاحتلال . واذا صرفنا النظر عن نواحي الحياة السياسية في عهد الاحتلال الى مستهل الحرب العامة ، وحصرناه في الحياة الاقتصادية رأينا تقدماً مطرداً وقف عليه المؤلف فصله الرابع وجعل عنوانه « السدود والقناطر » وهو عنوان موافق لأن

حديث التقدم في حياة مصر الاقتصادية فيما بين ١٨٨٠ — ١٩١٤ انما هو حديث توسيع مرافق البلاد الزراعية من الري الصيفي او ري الاحواض الى الري المستديم. وكذلك زادت محصولات البلاد الزراعية ولا سيما محصول القصب . وارتفع مقدار الصادر من البلاد ارتفاعاً كبير الشأن. هنا حديث تقوية القناطر الخيرية وجعلها صالحة للسيطرة على ري الوجه البحري وبناء خزان اسوان وخزان أسيوط وقناطر اسنا فزادت مساحة الاراضي الصالحة للزراعة من ٦٧٨ر٧٦٢ر٤ فدان في سنة ١٧٨٩ الى ٤١٢ر٧١٢ر٧ في سنة ١٩١٣

ثم عالج المؤلف موضوع الصرف والسكان (زاد السكان من نحو ٧ ملايين سنة ١٨٨٠ الى أكثر من ١٢ مليوناً سنة ١٩١٤) وتوزيع زراعة المحصولات وارتقاء التجارة الخارجية (زادت قيمة الصادر من نحو ١٣ مليوناً سنة ١٨٨٠ الى نحو ٣٢ مليوناً في سنة ١٩١٤) والأموال الأجنبية المستثمرة في البلاد ، معالجة سداها التحقيق والاحصاء ولحمتها البيان الواضح وحسن التبويب

وعقب على هذه الفصول بفصلين في حالة مصر الاقتصادية في خلال الحرب الكبرى ثم في العشرين سنة التي انقضت على انتهائها وختم كتابه بفصل موجز في الاتجاهات العامة الخاصة بالسكان وانتشار الصناعة ومشروعات الري الكبيرة وألحق به ذيولاً فيها جداول احصائية عظيمة الفائدة

٤ — ضباط اميركيون في الجيش المصري (١)

كانت اهم اقسام هيئة اركان حرب الجيش المصري — القسم الجغرافي — وكان اول ما اضطلع به استكشاف الصحارى المصرية. ففي عام ١٨٧٠ قام الكولونيل بوردي على رأس نخبة من الضباط المصريين لاستكشاف المنطقة الصحراوية بين النيل والبحر الاحمر . وقد استغرقت اعمال هذه البعثة عاماً عادت بعده بحقائق وافية . ورسمت الطرق الصالحة لمرور القوات . وفي عام ١٨٧٣ قام الكولونيل المذكور ببعثته الثانية الى ميناء برنيقة عن طريق البحر الاحمر . والتقى مع بعثة الكولونيل كولستون الى الميناء المذكور عن طريق قنا . ثم اشتركت البعثتان في كشف البقاع التي بين برنيقة وبربر . وفي عام ١٨٧٤ قامت ثلاث بعثات هامة باشراف هيئة اركان الحرب . الاولى — بعثة الكولونيل بوردي في دارفور . وقد تكلم عن اعمالها ، القاضي كرابيتس في الفصل الخامس من الكتاب . الثانية — بعثة الكولونيل كولستون في كوردفان . وقد وصف أعمالها في الفصلين السابع والثامن . الثالثة — بعثة المهندس ميشيل لقيام بأعمال جيولوجية في المنطقة بين النيل والبحر الاحمر . وهنا نلاحظ ان القاضي العادل كرابيتس لم يذكر اسماً واحداً من الضباط المصريين الذين زاملوا رؤساء البعثات الثلاث السابقة مع ان أسماءهم تحتوي

(١) Americans in the Egyptian Army. By Pierre Crabites راجع القسم الاول من هذا البحث في مختلف يناير سنة ١٩٣٩

عليها المصدر التي استقى منها القاضي كل معلوماته . فهل أراد القاضي كرايتس ان يكون أميركيًّا فقط فلا يذكر اسمًا مصريًّا إلا بما ندر لكي يطابق بحثهُ اسم الكتاب ؟

لقد كان حريًّا بالقاضي كرايتس ان يذكر أسماء ضباط البعثة الأولى من المصريين الذين زاملوا الكولونيل بوردي هكذا : الملازمون الاوّل محمود صبري ومحمد سامي وسعيد نصر والملازم الثاني خليل حلمي والطبيب محمد أمين والاثنا عشر صف ضابط وجندي من قوة أركان الحرب . والكولونيل مبسون بحث لخص فيه أعمال هذه البعثة

واشترك في البعثة الثانية مع الكولونيل كولستون — وكان تدعين في المدرسة الحربية لتدريس الجيولوجيا — الملازمون الأول عمر رشدي ومحمد ماهر وأحمد حمدي ويوسف حامي وخليل قوزي وأربعة ضباط آخرون . ووصلت هذه البعثة الى مدينة الأبيض في ١٢ يونيو ١٨٧٥ . وفي هذه الرحلة أصيب الكولونيل كولستون بمرض شديد . فعهد بقيادة البعثة الى الميجور برونت (Major Erout) الذي قام بمهمته خير قيام . وكتب تقريرًا عن بعثته

أما البعثة الثالثة ففيها اصطحب المهندس ميشيل الضابط عبد الفتاح حلمي . وكان غرض البعثة كشف المعادن بين النيل والبحر الاحمر . وقد كشف مناجم الذهب في الحمامات شمالي قنا . ثم عرجت الى ثغور البحر الاحمر وخليج عدن كالقصير ومصوع تاجورة وزيلع . وأوغلت في الداخل ثم عادت الى مصوع . وكشفت الجهات الشرقية من الحبشة

وقد ذكر القاضي كرايتس (ص ٥١ من كتابه النفيس) ان الجنرال ستون رفع في ٢٥ سبتمبر عام ١٨٧٥ تقريرًا الى الخديو اشتمل على دراسة فنية عن كيفية استخدام ترع الري كجزء من مشروعات الدفاع الداخلية والانتفاع بالمواد الطينية التي تزال من الترع عند تطهيرها وذلك بعمل جسور يمكن الاستفادة بها في وقت الحاجة

وفي ١١ نوفمبر ١٨٧١ رفع الجنرال تقريرًا اتبعه بآخر في ٢٨ سبتمبر ١٨٧٣ أشار فيهما الى حرب الفواصات واقتراحه إنشاء سلاح للفواصات والاشتراع بالطوربيد . ولم يفت المؤلف ان يذكر لنا شيئًا عن الضيق المالي الذي وقع فيه الجنرال ستون وهو يجد في ابحاثه العسكرية في مصر . فقد تسلم الجنرال بواسطة قنصل أميركا بالقاهرة دعوة رفعها عليه الكولونيل أليسون طالبهُ فيها بما عليه من بعض المال . وقد أورد لنا فقرة من الخطاب الذي كتبهُ ستون باشا للقنصل يعد فيه بدفع المبلغ مع ضآلة مرتبه الذي لا يكاد يكفيه

وتضمن الفصل التاسع الحديث عن وصول غوردن الى مصر بعد استقالة السير « صمويل بكر » من خدمة الحكومة المصرية واختيار الليفتنت كولونيل شايه لوتج للخدمة معهُ في مديرية خط الاستواء لمحاربة تجارة الرقيق في أقاليم أعالي النيل وتعزيز سلطة الحكومة المصرية . ثم

وصف في الفصلين العاشر والحادي عشر كيف وطّد شايه لونج صلاته بالملك ثيثا ، وسفره فيما بعد الى اوغندة وقصته الطويلة في توطيد علاقة مصر في تلك البلاد واخلاء المديرية التي قادها لاخضاع الوطنيين والنتائج التي أفضى اليها تولي غوردن حكم تلك المناطق . وكان من أهمها رسم خارطة النيل الأبيض من الخرطوم الى الرجاف والاضرار بتجارة النخاسة وسيادة السلام حوالي غندكرو وتشييد مراكز للحكومة في تلك الانحاء مع تنظيم المواصلات بين النقط البعيدة وأهم من كل ذلك اكتشاف شايه لونج لبحيرة ابراهيم

وفي الفصول التالية يصف القاضي كرايتس ، بالتفصيل المقابلات والأحاديث التي كانت تدور بين شايه وغوردن وحذرهما المتبادل مما اقتبسهُ المؤلف من كتابات الضابط الاميركي وجريدة اركان الحرب الجيش المصري ونشرة الجمعية الجغرافية . وفيها كتبهُ الجغران متون في تقرير معروف لهُ قدّمه لأعضاء الجمعية الجغرافية في ٨ ديسمبر عام ١٨٨٢ . ونجد الآن من حسن الحظ تفصيلات هذه الحوادث في كتاب « تاريخ مديرية خط الاستواء » الذي أخرجهُ سمو الأمير الجليل عمر طوسون

وفي الفصلين الرابع عشر والخامس عشر يصف القاضي كرايتس المعارك الذي اشتبك فيها شايه لونج مع الاونيورين والنيارين . وتجريدة مكراكا بتمام تمام (٣٠ يناير — ١٤ مارس) ووصولها الى مدينة لادو في ١٤ مارس وكيف استقبلهُ استقبالا عسكريًا قائد المحطة الضابط المصري البكباشي علي لطفي . وكان شايه لونج في ذلك الحين قد تسلّم خطاباً ورد اليهِ من غوردن وفيهِ رضاء الخديو عنه ومنحه رتبة الاميرالاي . ونحن ننشر هذا الخطاب تسجيلاً للدور الكبير الذي لعبهُ هذا الضابط الاميركي في سبيل مصر

القاهرة في ٧ ديسمبر سنة ١٨٧٤

نظارة الجهادية مكتب الناظر

يا حضرة الأميرالاي

لقد تعطف سمو الخديو وأراد ان يظهر للقائمقام لونج التفاته وحسن رضاه نظراً لما ابداه من حسن السلوك والاقدام والثبات في الموقعتين اللتين حدثتا عند مروي بالقرب من خط الاستواء فمنحهُ رتبة الاميرالاي مع النيشان المجيدي وتجدون مع هذا الفرمان الصادر بذلك فارجوكم أن تسلموه لأمير الآلاي لونج بك وتقدموا له في الوقت ذاته من قبلي التهاني

وتفضل يا حضرة الميرالاي بقبول تمنياتي الطيبة امضاء حسين كامل

ثم يصف لنا القاضي وصول شايه لونج الى محطة العاصمة وامتطائه حماراً الى الفندق « نيوجراند هوتيل » وكان أرقى فنادق القاهرة . وبلغ الخديو خبر قدومه غداة اليوم الذي وصل فيهِ .

فأرسل يقول انهُ مستعد لمقابلته في الحال بقصر عابدين . وعند ما أدخل عليه تقدم نحوه وصافحهُ وشكرله بعبارات مؤثرة الخدمات التي أداها في افريقية الوسطى[1]

وبعد ذلك ببضعة أيام استدعاهُ مرة اخرى الى قصر النيل حيث كان الخديو يحيط به وزراؤه وكبار موظفي البلاط وضباط الجيش . فقابله بالايناس والبشر والمجاملة واتهز سانحة توزيع هذه النرصة لتقديم مجموعة الأسلاب والغنائم التي رجع بها من حملاته

وفي ٣٠ مايو ارسل الخديو يستدعيه مرة ثالثة الى قصر النيل حيث اجتمع عدد كبير من الموظفين ملكيين وعسكريين والجنديان السودانيان سعيد بقاره وعبد الرحمن الفوراوي اللذان أمر بمرافقته . وقد ألقى الخديو خطبة حافلة بعبارات فصيحة مؤثرة ردد فيها عبارات المدح والثناء على ما أبدوه من الاخلاص والبسالة في واقعة مرولي

وقد أورد القاضي في الفصل السابع عشر حوادث الحملة المصرية في بلاد الحبشة واشتراك الضباط الاميركيين فيها . ووصف أهم العوامل التي أدت الى الهزيمة المنكرة التي مني بها الجيش في تلك البلاد وكانت تلك الحملة بقيادة راتب باشا ورئيس هيئة اركان حربه الكولونيل داي ومعهُ الكولونيل شارلز فيلد وزملاؤهُ دريك ونوش ولاسون وغيرهم . ثم وصف كرايتس في الفصل الثاني الاعمال الطوبوغرافية التي قام بها الأميرالاي لوكيت والمهندس ميشيل ثم أتمها فيما بعد ضباط مصريون وكانت أهم أعمال هذا الضابط اشرافه على رسم خارطة افريقية مبين عليها جميع الاستكشافات المصرية . وهذه الخارطة القيمة ما زالت الى اليوم في مكتبة قصر عابدين العامر

وقد خصص المؤلف الفصلين التاسع عشر والعشرين لوصف اعمال الميفنت كولونيل اسكندر ماسون وأهمها كشفه لنهر السليكي عقب رحلته في ١٤ يونيو عام ١٨٧٧ على ظهر الباخرة نيازا وللمهمة التي عهد بها الخديو اسماعيل الى الكولونيل « جريفز » Col. Graves والقائمقام محمد مختار وهي ارتياد شواطىء الصومال لاختيار موقع يقام عليه فنار لارشاد السفن . فخطّط القائمقام مختار بك خارطة هذه الجهة ومكان الفنار وهو يقع على بعد ثمانية اميال جنوبي رأس جردفوي

وفي الفصول الثلاثة الختامية للكتاب لخص الكاتب أهم اعمال الضباط الاميركيين الباقية وحوادث مصر في عهد اسماعيل وتوفيق الى انتهاء خدمة اعضاء البعثة وسفر رئيسها الجنرال ستون عقب الاحتلال البريطاني بعد ما أدوا خدمة سامية لمصر وجيشها .

لقد كنا ننتظر صدور مثل هذا الكتاب منذ زمان بعيد . الى ان أتيح للقاضي الاميركي بير كرايتس تحقيق امنية طالما سعينا الى تحقيقها . فنحن نهنئه ونشكره لأنهُ اتاح لنا مطالعة صفحات مجيدة من تاريخ مصر

عبد الرحمن زكي

(١) راجع تاريخ مديرية خط الاستواء لسمو الامير الجليل عمر طوسون ص ٢١٨ — ٢٢٠